المقدمة

يُعد أحمد باشا الجزار من الشخصيات المهمة في تاريخنا العربي الحديث نتيجةً للدور البارز الذي اضطلع به خلال مدة حكمه الطويلة (١٧٧٥ – ١٨٠٤م) التي حكم من خلالها ولايتي عكا والشام وما عانته في أثناء ذلك العهد من عدم اهتمام كاف بالحياة الاجتماعية والثقافية ، إذا ما استثنينا فلسطين التي كثر فيها العلماء ممن كان لهم الدور الفاعل في تطور الحياة الثقافية ، ولم يكن بمقدور الجزار إيقاف مسيرتهم التعليمية والثقافية ؛ وذلك لقوة مكانتهم الاجتماعية بين السكان ، ولقدرتهم على الشكوى منه لدى الباب العالي في إستانبول .

ونتيجةً لوجود المذاهب الدينية المختلفة في مناطق حكم ونفوذ أحمد باشا الجزار ، أصبح من الصعوبة بمكان تحقيق أية نتيجة في مجال تطور الحياة الثقافية ، لاسيما في لبنان التي عانت من الاضطرابات الداخلية نتيجة الصراع الدائر بين أمرائها ممن لم يكن لديهم اهتمام سوى السيطرة على منصب الإمارة من الجزار مهما كان الثمن . ولما كان الجزار يخشى ما يخشاه من اتحاد الكلمة بين سكان لبنان بجميع طوائفه ، فقد عمد دوماً لزرع بذور الشقاق بينهم ، وأضرم نار الفتنة بين عدد من زعمائه ، لاسيما بين أمير جبل لبنان الأمير يوسف الشهابي وبني صعب المتاولة حكام بلاد بشارة والشقيف ، وتمكن الشهابيون من تحقيق بعض الانتصارات ، الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى إخفاق المتاولة في التمسك باستقلالهم والحفاظ عليه .

اعتمدت هذه الدراسة على عدد من المصادر المهمة ذات الشأن المباشر بسير تلك الأحداث ، مثل : **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر لمحمد بن**

خليل المرادي ، وتراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري لحسن بن عبد اللطيف الحسيني ، فضلاً عن كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا المنطقة خلال مدة حكم الجزار ، وأمدونا بمعلومات وافية ومفصلة عن الحياة الاجتماعية لتلك المنطقة ، تلك المعلومات التي أفادت منها الدول الأوربية الاستعمارية فيما بعد في غزو بلادنا العربية عسكرياً وثقافياً ، الأمر الذي انعكس على تاريخ بلاد المشرق العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، هذا بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من أهم المصادر باللغة الإنكليزية ومن التي تناولت بالبحث والتحليل أوضاع بلاد الشام بشكل عام والقدس وعكا ويافا ودمشق بشكل خاص ، كما تناولت المصادر الأجنبية تحليلاً وصفياً لشخصية أحمد باشا الجزار إبان فترة حكمه لبلاد الشام .
أتمنى أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة المتواضعة .

الباحث

الحياة الثقافية والاجتماعية في لبنان وفلسطين قبيل حكم أحمد باشا الجزار :

من خلال نظرة مبسطة لواقع الحياة الثقافية والاجتماعية إبان عهد الجزار ، نجد بأن من أشهر المكتبات التي كانت قائمة آنذاك هي مكتبة القدس ، ومكتبة الشيخ محمد الخليلي الذي أُعتبر من أشهر علماء القدس وأعيانها في القرن الثامن عشر ، إذ احتوت مكتبته المذكورة نحو سبعة آلاف كتاب [١] .

لم يكن علماء فلسطين وأعيانها من ذوي الشهرة الواسعة في الخارج ، كونهم مجرد صوفيين محليين عرفوا بكراماتهم ، كما كان الاعتقاد سائداً آنذاك ، وكانت إسهاماتهم في مجال العلوم الفقهية والدينية ضئيلة نسبياً ، ولم يصلوا إلى رتبة " **أعيان العلماء** " ، فكان ذلك سبباً في عدم ذكرهم من قبل الرحالة المسلمون إلاّ ما ندر ، وقد اعتمد بعضهم على نقل أخبار علماء فلسطين في كتبهم عن طريق الآخرين ، مثل الأخذ من الأفواه مشافهةً وبالكتابة إلى من في تلك البلاد التي لم يرها ، وفي ذلك يقول محمد خليل المرادي : " **إنه اجتمع لدي من الرحلات والأثبات والتراجم مع كثرة التنقير والتفحص الكثير والأخذ من الأفواه شفاهاً وبالمكاتبات إلى البلدان التي كنت لست أراها** " [٢]، وقد اطلع المرادي على ما كتبه الرحالة المسلمون مثل عبد الغني النابلسي عن علماء فلسطين التي لم ترق علمياً إلى مستوى يمكن من خلاله الأخذ بها [٣].

وكانت فلسطين في أثناء القرن الثامن عشر منبراً للعلماء ، فكان من بينهم الشيخ عبد القادر الحفناوي أستاذ الشيخ ظاهر العمر عندما كان صبياً ، إذ تعلم

---

[١]) حسن عبداللطيف الحسيني ، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري ، دراسة وتحقيق : سلامة صالح النعيمات ، عمان ، ١٩٨٥ ، ص٧٢ .

[٢]) محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ج١ ، القاهرة ، ١٣٠١ هـ ، ص٤ .

[٣]) ميخائيل الصباغ ، تاريخ ألشيخ ظاهر العمر الزيداني ، نشر وتعليق : قسطنطين الباشا المخلصي ، حريصا ، ١٩٣٥ ، ص١٧.

على يديه القرآن الكريم وبعض الآداب فضلاً عن تعلمه الكتابة [١]، وانتعشت اللغة العربية في عهد الشيخ ظاهر العمر ، ويدل على ذلك الكم الهائل من التراث الشعبي والشعر الشعبي الذي يمدحه ويمدح نظام حكمه وأبناءهُ [٢].

وإذا نظرنا بإيجاز إلى كتب التراجم المؤلفة في القرن الثامن عشر الميلادي ، نرى بوضوح ظاهرة الاتصال الفكري بين العلماء ممن تلقوا تعليمهم بالجامع الأزهر أو دمشق أو القدس وسواها من المراكز الثقافية المهمة في العهد العثماني ، ونجد بأن كثيراً من أهل الشام ومنها فلسطين من علماء الأزهر ، إذ عمل بعضهم بالتدريس والإفتاء في الجامع الأزهر بعد أن أجيزوا من علمائه ووصفوا بأنهم من أعيان أهل الإفادة والتدريس في الجامع الأزهر [٣] .

وكان من أشهر علماء القدس الذين درسوا في الأزهر الشيخ محمد الخليلي ، سابق الذكر ، وفي ذلك يقول حسن عبد اللطيف الحسيني :"... **وتوجه لمصر الأمصار (أي الشيخ الخليلي) فطلب وجدَّ ، وأخذ من علمائها الكرام الأبرار ومنحه الله بالجامع الأزهر ، والمقام الأنور الاجتماع بالخضر (عليه السلام) ودعا له بمزيد العلم والإنعام ، فزاد به الحال ، وترقى أعلى مراتب الرجال** " [٤].

ولم تكن الدراسة حكراً على الجامع الأزهر في القاهرة ، بل إن هناك من أهل العلم من أهالي فلسطين ممن درسوا في دمشق ، ومنهم السيد بدر الدين بن محمد الذي توجه إلى دمشق سنة ١١٦٤هـ / ١٧٥٠م ، وتلقى العلم من علمائها كالشيخ حامد أفندي العمادي المفتي وقتذاك [٥].

---

[١]) مؤلف مجهول ، مختصر تاريخ سورية ولبنان بقلم أحد الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٤ ، ص١٠١ .
[٢]) ميخائيل الصباغ ، المصدر السابق ، ص٥٨-٥٩ .
[٣]) حسن عبداللطيف الحسيني ، المصدر السابق ، ص١٤٦.
[٤]) المصدر نفسه ، ص٢٢٢-٢٢٣ .
[٥]) يحيى بن أبي الصفا بن أحمد بن محاسن ، المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية ، دراسة وتحقيق : محمد عدنان البخيت ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠١هـ ، (١٩٨١م) ، ص١٤.

وقد كانت ظروف لبنان مختلفة تماماً عما كانت عليه في فلسطين بسبب اختلاف الملل والنحل فيه ، ففي الشمال يتواجد المسلمون السنة ، وفي الوسط غالبية المذاهب المسيحية ، أما في جبل لبنان فهناك الأغلبية الدرزية ، بينما يستحكم مسلمو الشيعة على الجنوب فيما تم تسميته بجبل عامل [١].

وكانت مدينة طرابلس السنية أشهر مدن شمال لبنان ؛ لذا كان للوظائف الدينية فيها أهمية لاسيما ، سواءً من أهلها أم من العلماء الذين وفدوا إليها ، فالعثمانيون بعد سيطرتهم على الشام ومنها لبنان ، أعادوا تنظيم الجهاز القضائي المملوكي [٢] ، فأعطيت المنزلة الأولى للقاضي الحنفي– مذهب الدولة الرسمي– ولم يكن هذا يعني إلغاء بقية المذاهب ، فقد كان يطلب من القضاة في المحاكم أن يعرضوا أحكامهم على القاضي الحنفي في المحكمة لإجازة مثل تلك الأحكام واشتهر من علماء طرابلس ، قاضيها عبد الكريم أفندي الكنغري من قصبة بالقرب من أنقرة ، وألف نحو تسعين كتاباً ، وقد قابله يحيى بن أبي الصفا ابن محاسن خلال رحلته إلى طرابلس وقال عنه : " **ثم تشرفنا بقاضي البلدة مفخر الموالي العظام والأفاضل الفخام عبد الكريم أفندي الكنغري من قصبة بالقرب من أنكورية** [٣]**... وهو في الجملة والتفصيل مظهر من المظاهر قد فاق على الأوائل والأواخر ، كبير في السن ، يحب الدنيا الدنية ، ممتحن تمر به غالب الأوقات وهو في الأمراض...**" [٤] ، واشتهر أيضاً من علماء طرابلس الشيخ العلامة عبد الكريم بن

---

[١]) يحيى بن أبي الصفا بن أحمد بن محاسن ، المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية ، دراسة وتحقيق : محمد عدنان البخيت ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠١هـ ، (١٩٨١م) ، ص١٤.

[٢]) (1) R. T. Milner , Turkish Empire : The Sultans , The Territory and The People , London , 1964 , P. 180 .

[٣]) ميخائيل الصباغ ، المصدر السابق ، ص٦١-٦٢.

[٤]) المصدر نفسه ، ص٦٢-٦٤.

الشيخ مصطفى الشافعي الحموي ، ونقيب الأشراف السيد حسن بن السيد يحيى الطرابلسي [١] .

وكانت سيادة الشيعة (المتاولة) المسلمين واضحة على جبل عامل في جنوب لبنان ، وخرج من هذه المنطقة أعداداً وافرة من متفقهي العلم الذي لا يتناسب وضيق أراضيها وقلة عدد سكانها ، ويؤكد محمد جابر آل صفا : "... **إن القطر العاملي كان في طليعة الأقطار السورية من حيث الشهرة العلمية ، وقد أحرز في هذا الشأن شوطاً بعيداً لا يدانيه قطر آخر ، لاسيما في القرون الأخيرة إذ كان مثابة للرحلة العلمية من الآفاق ، ومركزاً مهماً من مراكز التدريس الكبرى ، يؤمُّه الطلاب من كل فوج وصوب ، ولم تنقطع فيه مدد العلم ، ولا خبا نوره إلا في حقب قصيرة كانت تعقب الحروب والفتن التي يرافقها التدمير والخراب وإقفال المدارس وتعطيل معاهد التدريس** " [٢].

وهنا لا بد لنا من التوضيح بأن القرن الثامن عشر الميلادي قد أسهم إسهاماً مباشراً في دفع رجالات الحكم في جبل عامل على نشر المعارف واحتضان المدارس ، وتقديم الدعم للعاملين فيها ، وزيارتها باستمرار [٣].

وكانمن بين أهم المتاعب التي واجهها جبل عامل هو عدم وجود المكتبات العمومية فيها ، وكل ما كان موجوداً آنذاك هو المكتبات الخاصة بأهلها والتي كانت مغلقة ما دام صاحبها على قيد الحياة ، وفي حالة وفاة صاحبها تكون نهباً للصوص

---

[١]) محمد جابر آل صفا ، تاريخ جبل عامل ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٢٣١-٢٣٢ .

[٢]) المصدر نفسه ، ص٢٣٩ ، محمد كاظم مكي ، الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص٣١ ؛ محسن الأمين ، خطط جبل عامل ، تحقيق وإخراج : حسن الأمين ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ، ص١٨٣.

[٣]) عبد المجيد الحر ، معالم الأدب العاملي من بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م) ، ص١٥٣ .

أو المستعيرين والذين يبتاعونها بثمن بخس ، أو تتلفها الحشرات وتراكم الأتربة وأمور أخرى ، وكان من أشهر المكتبات المتواجدة آنذاك مكتبة الشيخ عبدالله نعمة ، وكانت عامرة بالمخطوطات النادرة ، لكنها ضاعت للأسباب السالفة الذكر ، ومكتبة آل الحر في جبع أيضاً ، ولم يبق منها إلاّ القليل وتوزعتها أيدي الورثة وغيرهم ، ومكتبة آل السبتي في كفرة التي لم تكن أحسن حظاً من غيرها ، ومكتبة الشيخ أحمد الرضافي النبطية التحتا ، وهي مرتبة ولها فهرست وفيها كتب مخطوطة نادرة ، ومكتبة الشيخ سليمان ظاهر في النبطة ، والتي حوّت على عددٍ لا بأس به من نوادر الكتب وآثار جبل عامل [١].

وازدهرت جبل لبنان ذات الأغلبية المسيحية بتطور الحركة التاريخية عن بقية الولايات العربية وذلك في السنوات الثلاثمئة الأخيرة ، وللأسباب التالية [٢] :-

أولاً : الحالة السياسية الخاصة في جبل لبنان .

ثانياً: نمو حركة المثقفين التي أتقنت العربية ، فضلاً عن اهتمامها بشؤون العصر الحديث في أوربا وتطوراته الاجتماعية والثقافية .

ثالثاً: توفر المادة السياسية والدينية مما شجع على الكتابة فيها والدفاع عنها .

وأدرك المسيحيون بأن القرن الثامن عشر الميلادي قد مثل لهم عهد النهضة الأدبية في الوسط العربي المسيحي ، فقد كانت غالبية المؤرخين اللبنانيين من الكهنة الذين تلقوا تعليمهم وثقافتهم في المدارس اللاهوتية في روما ، لذا فقد دافعوا عن المؤسسات التي انتموا إليها ، وحاولوا إثبات وجودهم واستقلالهم السياسي من

---

[١]) حسن عبداللطيف الحسيني ، المصدر السابق ، ص٨٨-٨٩ .

[٢]) حسن عبداللطيف الحسيني ، المصدر السابق ، ص٨٩ ؛ أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٦٣-١٩٦٥ ، ص٧٥٣ .

محيطٍ أغلبيتُه من المسلمين ، وخيرُ مَن مثَّل هذا الاتجاه الديني السياسي هو البطريك الماروني اسطفان الدويهي المتوفى عام (١١١٦هـ – ١٧٠٤م) ، في كتابه " **تاريخ الأزمنة** " إذ مهد فيه الطريق للمؤرخين المسيحيين الموارنة اللاحقين للخوض في تفاصيل البحث التاريخي الحديث [١] .

وكنتيجة طبيعية لتطورات الأحداث السياسية التي شهدها جبل لبنان إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ظهرت طبقة جديدة من المثقفين ، دخلت في البناء السياسي الجديد ، وكانت لديها القدرة على كتابة تأريخها ، وأغلب هؤلاء ينتسبون لعائلات متعلمة وعلمانيين تثقفوا في المدارس التبشيرية وفي الأديرة ، وأهم من ذلك أنهم تعلموا اللغة العربية على يد علماء مسلمين ، وقد أخذت هذه الفئة تركز على تدوين تأريخ الأسر الإقطاعية في جبل لبنان [٢].

الحياة الثقافية والاجتماعية في لبنان وفلسطين إبان عهد أحمد باشا الجزار :

تمسك أحمد باشا الجزار بعلاقاته الطيبة بالحكومة العثمانية المركزية ، وذلك من خلال تأديته للضرائب في مواعيدها المحددة سلفاً ، والعمل على أن يظل عاملاً لا غنى عنه في سيطرتهم على الشام ، وفي ذات الوقت قام الجزار بمناورات عديدة أسهمت بشكل أو بآخر في زيادة نفوذه وقوته في المنطقة دون منازع ، حتى غدا والياً على دمشق وصيدا ، فقام العثمانيون ودون تردد بإطلاق يده في تلك المناطق لإحكام سيطرتهم عليها بسهولة [٣].

---

[١]) حسن عبداللطيف الحسيني ، المصدر السابق ، ص٨٩ .
٤. P. K. Hitti , A Short History of Lebanon , London , 1965 , P. 185
[٢]) حسن عبداللطيف الحسيني ، المصدر نفسه ، ص٧٨-٨٠ .
[٣]) بشارة دوماني ، إعادة اكتشاف فلسطين . أهالي جبل نابلس ١٧٠٠ – ١٩٠٠ ، ترجمة : حسني زينة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص٥٦ .

تضررت فلسطين كثيراً من الناحية الثقافية زمن حكم الجزار نتيجة لكثرة الاضطرابات والقلاقل التي سادت معظم حقب حكمه نتيجة لفقد عدد من المدارس أهميتها ، واتجاه معظم علماء فلسطين إلى مصر ودمشق للتدريس فيهما ، أو لينهلوا من فروع المعرفة ، غير أن هذا لم يمنع بعضهم من العودة إلى فلسطين لإلقاء الدروس في المسجد الأقصى [١] ، وفي مرحلة لاحقة قلت نسبة العلماء المسافرين للخارج لتلقي العلم بسبب السياسة التعسفية للجزار في فلسطين من جهة والحملة الفرنسية على مصر وفلسطين وما ترتب عليها من أزمات اقتصادية من جهة أخرى [٢].

وعلى الرغم من سياسة الشدة التي لازمت حكم الجزار ، غير أنها لم تستطع من منع بروز عدد من علماء فلسطين آنذاك ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر منهم : الشيخ محمد بن بدير بن محمد المشهور بابن حبيش القدسي ، والشيخ حسن ابن محمد الخالدي (١١٥١-١٢٠٠هـ / ١٧٣٨-١٧٨٦م) وهو شيخ مقدسي عالم وأديب وحسن الخط له نظم على طريقة الفقهاء ، درس العلوم الدينية على يد شيوخ بلده ، وأسندت له وظيفتا الشهادة والكتابة في مجلس القضاء في القدس ، وصار أحد العدول المرموقين [٣]، ومنهم الشيخ محمد أفندي أبو السعود (١١٤٨- ١٢٢٨هـ / ١٧٣٥-١٨١٣م) وهو عالم أزهري ، مفتي المذهب الشافعي وشيخ مشايخ الطرق الصوفية الخلوثية والقادرية في الديار القدسية ، والشيخ عثمان أبو غوش في منطقة جبل القدس الذي تعهد خلال مدة

---

[١]) عبدالكريم رافق ، فلسطين في عهد العثمانيين – الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، الدراسات الخاصة ، مج٢ ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص٨٠١-٨٠٢ ، الحسيني ، المصدر السابق ، ص٣٤٣-٤٠٠ .

[٢]) هيئة الموسوعة الفلسطينية ، الموسوعة الفلسطينية . القسم العام ، ج٢ ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص٢٤٤-٢٤٥ .

[٣]) عادل مناع ، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠ – ١٩١٨) ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص٢٥-٢٦ ، ٣٧.

الغزو الفرنسي لفلسطين عام ١٧٩٩م بتجنيد خمسمئة رجل لقتال الجيش الفرنسي ، وتوفي في أواخر سنة (١٢٢٦هـ – ١٨١١م) [١].

وعلى الرغم من اهتمامات الجزار بالسياسة على حساب الأوجه الحضارية الأخرى [٢] ، فإننا نجد أن أهم معْلم ثقافي قام الجزار بإنشائه هو بناء جامع فخم كبير ، يعد آية من الجمال ، وهو من أكثر المظاهر المعمارية في العهد العثماني إبداعاً ببلاد الشام ، وأطلق عليه اسمه ، فصار يعرف بجامع أحمد باشا الجزار وقد أتم الجزار بناء هذا الجامع في سنة ١٧٨٢م ، ولم يكتف الجزار بذلك ، فألحق بجامعه هذا مدرسة لتدريس العلوم الشرعية والفقهية ، وضم إليه مكتبة حملت اسم المكتبة الأحمدية – نسبة إلى اسمه – حَوَت أكثر من ثلاثمئة كتاب ، كما وجد في عكا نهاية القرن الثامن عشر خمسة أو ستة مساجد قام الجزار بإنشاء نصفها مما يبين عدد سكان المدينة الكبيرة إبان مدة حكمه[٣] .

كما أبدى الجزار اهتماماً ملحوظاً بولاية عكا ، إذ عمل على بناء سورين لها ، الواحد ضمن الآخر وجعل منها حصناً منيعاً في المنطقة برمتها ، كما أمر ببناء الأسواق والحمامات والثكنات العسكرية ، فضلاً عن الخان الكبير المسمى " **خان المعمدان** " [٤]، كما أنشأ في الولاية خمسة عشر سبيلاً لسد احتياجات الناس من مياه الشرب التي كانت تصل إليها من منبع الكابري في قضاء عكا بوساطة قناطر وأقنية مثبتة فوقها وظاهرة للعيان فوق سطح الأرض [٥].

---

١) عادل مناع ، المصدر السابق ، ص٥٨-٥٩ .
(2) A. Cohen , Palestine in the 18 th Century , Jerusalem , 1973 , P. 27 .
(3) http : // www.4uarab.com /vb/ Show thread . php?t = 52798 .
٤) نبيل خالد الأغا ، مدائن فلسطين . دراسات ومشاهدات ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص٢٠٦ – ٢١٦ .
؛ P. K. Hitti , Syria A Short History , London , 1959 , P. 223 .

٥) متي سمعان وآخرون ، عكا . تراث وذكريات ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص٢١ .

وعلى الرغم من محاولات الجزار المتكررة لإحداث الفرقة والشقاق بين خصومه في جبل لبنان لتوطيد سلطته المركزية في عكا ، إلاّ أن ذلك لم يمنع من ظهور بعض المظاهر الثقافية الخارجية في لبنان بسبب تدخل بعض رجال الدين المسيحيين الأوربيين في شؤون الطائفة المسيحية المارونية ، فأدخلوا إلى لبنان بعض الأساليب الثقافية كالمطبعة وغيرها من الأمور التي تخدم الثقافة والعلم لأمور تخدم أهداف التبشير فيه ، لاسيما وأن العلاقات بين الموارنة والجزار كانت متوترة نسبياً ، الأمر الذي يَسَّرَ من عمل الإرساليات في لبنان لاحقاً [١] .

ولقد كان من بين أهم العوامل التي أضعفت الحياة الفكرية في لبنان :-

أولاً: نفوذ الجزار وسطوته على أمراء لبنان ومشايخها واستعمال سياسة الشدة ضدهم[٢] .

ثانياً: خضوع لبنان لحكم الجزار ونفوذه نتيجة لانشغاله في الصراعات الداخلية والمنافسة بين أمرائه للوصول إلى الحكم ببذل المزيد من الأموال للجزار .

ثالثاً: ازدياد الاضطرابات والفوضى السياسية في جبل لبنان تعود أساساً إلى خلافات الأمراء اللبنانيين ، ونجاح الجزار في استثمار ذلك الأمر بتأييد أمير ضد آخر للاستفادة مادياً من هذه الخلافات [٣].

ومن جهة أخرى تميزت العلاقة بين الجزار ومتاولة جبل لبنان في بعض الفترات بالهدوء النسبي ، غير أن تصادم المصالح بين الطرفين أدى إلى النفور ووقوع المعارك بينهم ، ولكن في المحصلة النهائية لم يختلف موقف الجزار وسياسته

---

١) أسامة أبو نحل ، أحمد باشا الجزار : إدارته وعلاقاته السياسية والإقتصادية بالقوى الإقليمية والدولية ، الخرطوم ، ٢٠٠١ ، ص٨٧-١٠٦.

(2) A. Cohen , OP., Cit., P. 27 .

٣) أسامة أبو نحل ، المصدر السابق ، ص١١٧ .

تجاههم في جوهرها عن الإطار العام لسياسته في لبنان عامة ، ورغم أن المتاولة قاموا بعدة انتفاضات ضد حكمه وسطوته ، إلا أنها فشلت لافتقارها للتنظيم والقيادة المركزية الموحدة [١] .

وعلى ذلك فإن الحياة الفكرية في جبل عامل اكتنفها الكثير من الصعوبات في عهد الجزار ، لاسيما السياسية منها ، بسبب حروب الجزار في تلك المنطقة سنة (١٧٨١هـ - ١٧٨٥م) ، التي أدت إلى هزيمة مدوية للمتاولة [٢] الذين تزعمهم ناصيف النصار ومقتله في معركة يارون ، وما ترتب على ذلك من فقدان المتاولة لاستقلالهم السياسي طوال مدة حكم الجزار ، بعدما تمكنت قواته من الاستيلاء على عدد كبير من القلاع الحصينة مثل هونين وتبنين ، فضلاً عن مدينة صور الساحلية [٣]، فانتشرت الفوضى ونشبت الثورة ضد الجزار في أكثر من مكان ، فأغلقت المدارس وأقفلت معاهد العلم وانقطعت سلسلة التدريس بعد أن احتلت منزلة رفيعة ومرموقة وأحرزت شهرة واسعة وصلت إلى مواطن الشيعة في الهند وفارس وروسيا وغيرها من البلدان التي تواجدوا فيها [٤].ومن الأمور الدالة على ضعف الحياة الثقافية إبان عهد الجزار ما انتاب بلاد الشام عامةً ولاسيما فلسطين في عهده من إصابة تلك البلاد بالجفاف وأحياناً بالوباء [٥].

---

١) أسامة أبو نحل ، المصدر نفسه ، ص١١٨ .

٢) كان الجزار يرغب منذ زمن بعيد في الانتقام من متاولة جبل عامل بسبب تحالفهم السابق مع الشيخ ظاهر العُمر . وفي عام ١٧٨٥م ، وبعد أن زاد الجزار جيشه إلى (١٥) ألفاً من الأفاقين الجدد الذين كانت شهرته تجذبهم إلى الشام من كل مكان ، شن الجزار حملته الشهيرة على بلاد المتاولة وقبائلها التي دافعت عن نفسها بشجاعة . وقد اخترقت جحافل الجزار الجبال واستولت على الحصون وظلت قرابة السنتين تعذب ساكني تلك المناطق .
لمزيد من التفصيلات حول حملة الجزار العسكرية ضد متاولة جبل عامل .. ينظر : قسطنطين بازيلي ، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ترجمة : طارق معصراني ، دار التقدم – موسكو ، ١٩٨٩ ، ص٧٢ – ٧٣

٣) أسامة أبو نحل ، المصدر السابق ، ص١١٢ - ١١٣ .

٤) محمد جابر آل الصفا ، المصدر السابق ، ص٢٤٠ .

٥) المصدر نفسه ، ص٢٤٥ .

كان التأثير الثقافي واضحاً إبان حكم الجزار في فلسطين أكثر من أي منطقة أخرى في بلاد الشام من نتائج الحملة الفرنسية التي لم تتعد حدود فلسطين ، فنتيجةً لهذه الحملة وعلى الرغم من فشلها الذريع ، فإنها حققت بعض النتائج الثقافية التي أفادت منها فلسطين بعد مغادرة الحملة لأراضيها ، فقد أفادت فلسطين من الحملة الفرنسية علمياً ، من خلال عملية الإحصاء التي قام بها الفرنسيون لهذه المناطق فضلاً عن الخريطة الجغرافية للمنطقة التي وضعوها بدقة متناهية [١]، إذ قام علماء الحملة الفرنسية برسم خريطة للساحل الفلسطيني ، ظهرت عليها جميع المدن والقرى التي مرت بها الحملة في أثناء توجهها نحو عكا عام ١٧٩٩م ، وتعد هذه الخريطة الأولى من نوعها جغرافياً بالنسبة لفلسطين في العصر الحديث ، إذ كانت دقتها كدقة الأنواع الحديثة من الخرائط الحالية [٢].

وكان دور الرحالة الأوربيين مؤثراً وفعالاً في تحديد الأُطر الثقافية والاجتماعية في فلسطين وبلاد الشام خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد دفعتهم روح المغامرة لاستكشاف حياة الشرق لتحقيق أهداف معينة ، منها حب الاستطلاع لمن قام بهذه الرحلات تحديداً [٣].

وكان الرحالة الفرنسي الشهير " **فرانسوا فولني C.F.volney** " **والإنكليزي جيمس براون Games Browne** " من بين أشهر الرحالة الذين زاروا المنطقة آنذاك ، إذ زار فولني فلسطين وبلاد الشام في ثمانينيات القرن الثامن عشر ، إذ قام

---

[١]) ب.س.جيرار ، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر (من مجموعة وصف مصر ج١) ، ط١ ، ترجمة : زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص٢٨٦ .

[٢]) سليم عرفات المبيض ، غزة وقطاعها ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص٢٣٢ .

[٣]) ألكس كرمل ، تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين ، ترجمة: تيسير إلياس ، مراجعة وتقديم: بطرس أبو منه ، حيفا ، ١٩٧٩ ، ص٩٦ .

؛ K. Armstrong , Jerusalem . One City , Vol . 3 , New York , 1996 , P. 346 .

كل منهما بتدوين مشاهداته في هذه البلدان في كتاب من جزأين ، وكان الكتاب بعنوان : " **رحلات في سوريا ومصر** **Vol/،age en syrie et Egypt** " وإستفادت الحكومة الفرنسية كثيراً مما أورده فولني في كتابه من مشاهدات ، لاسيما قائدها الشهير نابليون بونابرت الذي لم يمض وقت طويل حتى قام بحملته على مصر عام ١٧٩٨م ، وفلسطين عام ١٧٩٩م [١].

وقد أبدى فولني في كتاباته ومشاهداته اهتماماً واضحاً بذكر عادات السكان الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية وسلوكهم الأخلاقي ، ورصد الظواهر السياسية للمنطقة لاسيما في بلاد الشام بعد القضاء على حكم الشيخ ظاهر العمر ، وتولي أحمد باشا الجزار الحكم ، فوصفه بالحاكم المستبد[٢] ، ولم يكتف فولني بذلك فعني بالخريطة السكانية لفلسطين مبيناً عناية السكان بالسكن في القرى والمناطق الجبلية ، لاسيما مابين بحيرتي الحولة وطبرية ، وما تشتهر به من خصوبة التربة وكثرة المياه ، فضلاً عن بعدها عن دمشق مما جعل هؤلاء السكان بعيدين عن سطوة ولاة دمشق ، وشجع بعض السكان الآخرين على القدوم والسكن فيها[٣] ، كما بيّن فولني أهمية مدينة القدس بوصفها مدينة دينية وثقافية تجمع عدداً من علماء الدين بين جنباتها ، وقام بوصفها وقدّر عدد سكانها بين (١٢٠٠٠ – ١٤٠٠٠) ألف نسمة ، وتحدث عن صناعتها لاسيما الأدوات التذكارية الدينية التي يصدر جانب منها إلى الخارج ، وأوضح مصادر دخلها لاسيما تلك المتعلقة بما ينفقه الحجاج المسيحيون فيها في عيد الفصح[٤] .

---

[١]) ب.س.جيرار ، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر (من مجموعة وصف مصر ج١) ، المصدر السابق ، ص٢٩٠ – ٢٩١ .

(2) R. Mahler , A History of Modern Jewry 1780 – 1815 , London , 1971 , P. 614 .

(3) C. F. Volney , Voyage en Syria et en Egypt , Tome II , Paris , P 333 .

(4) Ibid . PP . 334-338.

وأما الرحالة الثاني " **جيمس براون** " فقد قام بتأليف كتاب وصف فيه أوضاع المدن وتطورها وأسماه :" **رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا من عام (١٧٩٢ – ١٧٩٨م)** " Travels in Africa ، Egypt and Syria From The Year 1792-1798 " ولأهمية مؤلف براون هذا ، فقد طبع في إنكلترا عام ١٧٩٩م في الوقت الذي كان الصراع فيه محتدماً بين فرنسا وإنكلترا في مصر [١]. وقد غادر براون بعد انتهاء عمله مبحراً إلى فلسطين ، فوصل يافا بعد خمسة أيام من مغادرته دمياط ، ووصف براون يافا وصفاً دقيقاً ، مبيناً سوء الأحوال في المدينة – كما أسلفنا القول – بسبب هجوم المماليك عليها بقيادة محمد بك أبي الذهب ، والدمار الذي خلفوه فيها ، أو بسبب سياسة الجزار الذي كان يحكم فلسطين زمن رحلته[٢] . كما عمل على تحديد وصف دقيق لبقية المدن والقرى الفلسطينية التي قام بزيارتها وصفاً دقيقاً ينم عن مستواه المتقدم في وصف مشاهداته وتحليلها بما يخدم مصالح الاستعمار الحديث ، لاسيما في أثناء حديثه عن الطوائف الدينية التي تواجدت في فلسطين ، كاليهود واليهود السامريين والمسيحيين بمختلف مذاهبهم كالأرمن والأرثوذكس والروم الكاثوليك[٣] .

وأبدى براون اتهماماً ملحوظاً في وصفه على مدينة عكا ، مركز حكم الجزار ، إذ قال عنها بأنها مدينة كبيرة ، لكن الكثير من بيوتها كان شاغراً خاوياً على عروشه ، وقدر سكانها بين ١٥ – ٢٠ ألفاً ، بعدما ازدادت اتساعاً وشملها الكثير من التحسينات التي كان للجزار دور بارز في إدخالها ، لاسيما المسجد الذي بناه

---

[١]) ب.س.جيرار ، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر (من مجموعة وصف مصر ج١) ، المصدر السابق ، ص٢٩١ .

(2) Browne ، Travels in Africa , Egypt and Syria , from the 1792 to 1798 , London , 1799 , PP. 358-360 .

(3) Ibid ، PP. 360-366 .

وحمل اسمه ، فضلاً عن خمسة أو ستة مساجد أخرى كانت موجودة من قبل ، وذكر براون وجود حمامات وسوقين وقصر وخزانين للمياه والخانات التي تخزن بها البضائع والتي قد تكون مكاناً لإقامة التجار والمسافرين[١] . كما قدم وصفاً لبعض المدن اللبنانية ، مثل صيد الخاضعة لسيطرة الجزار ، شارحاً أهميتها السياسية والتجارية[٢] .

وعلى ذلك نستطيع القول بأن تردي الأحوال الاقتصادية في فلسطين كانت قد انعكست بشكل أو بآخر ملقيةً بضلالها الثقيلة على واقع الحياة الاجتماعية التي أثرت بدورها سلبياً على واقع الحياة الثقافية والفكرية فيها ، وإن الرحالة الأجانب عندما زاروا منطقة الشرق عامة ولاسيما فلسطين ، أولوا الجانب السياسي والاختلافات الاجتماعية في هذه المنطقة اهتماماً بارزاً ، ولم يولوا الجانب الفكري والثقافي فيها أية أهمية ، نظراً لتركيزهم على الأمور التي تخدم سياسات حكوماتهم آنذاك .

(1) Browne , OP., Cit ., P. 367 .
(2) Ibid . P .371 .

الخاتمة

لقد أفادت فلسطين من الحملة الفرنسية (١٧٩٨ – ١٧٩٩م) ، لاسيما في المجالين العلمي والثقافي ، وأهمها رسم خريطة لها تتسم بالدقة وإجراء إحصاء دقيق لسكان المنطقة ، ولكن انعكاس الأحوال الاقتصادية السيئة إبان عهد الجزار على الحياة الاجتماعية في فلسطين ، مما أثر سلباً على الحياة الثقافية والفكرية .

وقد تدهورت الحياة الثقافية في لبنان نتيجة لاضطهاد الجزار للقوى اللبنانية المختلفة ، ولاسيما المتاولة الشيعة ، الذين كانوا قد أيدوا سلفه الشيخ ظاهر العمر ، فرحل عدد كبير من علمائهم إلى العديد من البلدان الإسلامية للعيش في جو فكري أفضل .

أما الرحالة الأوربيون الذين زاروا مناطق نفوذ الجزار فكان لهم دور بارز في إبراز الجانب السياسي والاختلافات الاجتماعية على حساب الجوانب الفكرية والثقافية ذات الأهمية ، ومرد ذلك يعود إلى اهتمامهم الملحوظ بالجوانب الأكثر أهمية والتي أفادت منها حكوماتهم التي خولتهم الرحيل صوب تلك المناطق .

... ومن الله التوفيق ...

المصادر

أولاً : المصادر العربية :-

(١) أسامة أبو نحل ، أحمد باشا الجزار : إدارته وعلاقاته السياسية والإقتصادية بالقوى الإقليمية والدولية ، الخرطوم ، ٢٠٠١ .

(٢) حسن عبد اللطيف الحسيني ، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري ، دراسة وتحقيق وتقديم : سلامة صالح النعيمات ، عمان ، ١٩٨٥ .

(٣) سليم عرفات المبيض ، غزة وقطاعها ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

(٤) عادل مناع ، أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠ – ١٩١٨) ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٥ .

(٥) عبدالكريم رافق ، فلسطين في عهد العثمانيين – الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، الدراسات الخاصة ، مج٢ ، الدراسات التأريخية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٠ .

(٦) عبدالمجيد الحر ، معالم الأدب العاملي من بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) .

(٧) متي سمعان وآخرون ، عكا ، تراث وذكريات ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢ .

(٨) مؤلف مجهول ، مختصر تاريخ سوريه ولبنان تعلم أحد الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٤ .

(٩) محسن الأمين ، خطط جبل عامل ، تحقيق وإخراج : حسن الأمين ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) .
(١٠) محمد جابر آل الصفا ، تاريخ جبل عامل ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨١م .
محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ج١ ، القاهرة ، ١٣٠١هـ .
(١١) نبيل خالد الأغا ، مدائن فلسطين . دراسات ومشاهدات ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٣ .
(١٢) هيئة الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، ج٢ ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٤ .
(١٣) ميخائيل الصباغ ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني ، نشر وتعليق : قسطنطين الباشا المخلصي ، حريصا ، ١٩٣٥ .
(١٤) ميخائيل مشتاقة ، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨ .
(١٥) يحيى بن أبي الصفا بن أحمد بن محاسن ، المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية ، دراسة وتحقيق : محمد عدنان البخيت ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠١هـ ، (١٩٨١م) .

ثانياً : المصادر الأجنبية المترجمة :-

(١) أغناطيوس يوليا نوفتش تراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ – ١٩٦٥ .

(٢) ألكس كرمل ، تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين ، ترجمة : تيسير إلياس ، مراجعة وتقديم : بطرس أبو منه ، حيفا ، ١٩٧٩ .

(٣) ب.س. جيرار ، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر (من مجموعة وصف مصر) ، ج١ ، ط١ ، ترجمة : زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

(٤) بشارة دوماني ، إعادة اكتشاف فلسطين . أهالي جبل نابلس ١٧٠٠ – ١٩٠٠ ، ترجمة : حسني زينة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٨ .

(٥) قسطنطين بازيلي ، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ترجمة : طارق معصراني ، دار التقدم – موسكو ، ١٩٨٩ .

ثالثاً : المصادر الأجنبية غير المترجمة :-

(1) A. Cohen , Palestine in the 18 th Century , Jerusalem , 1973 .

(2) C.F.Volney ، Voyage en Syria et en Egypt ، Tome II ، Paris ، 1907 .

(3) K. Armstrong , Jerusalem . One City , Vol. 3 , New York , 1996 .

(4) P. K. Hitti , A Short History of Lebanon , London , 1965 .

(5) P. K. Hitti , Syria A Short History , London , 1959 .

(6) R. Mahler , A history of modern Jewry 1780 – 1815 , London , 1971 .

(7) R. T. Minler , Turkish Empire : The Sultans , The Terri Tory and the People , London , 1964 .

(8) W.G.Browne ، Travels in Africa ، Egypt and Syria ، from the Year 1792 to 1798 ، London ، 1799 .

رابعاً : شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) :-

- http:// www . 4 uarab . com / vb1 Show thread . php? T = 52798 .